

سياسات الفضاء المقدس:

مدينة القدس القديمة

في صراع الشرق الأوسط*

The Politics of Sacred Space: The Old City of Jerusalem in the Middle East Conflict

Michael Dumper

Boulder and London: Lynne Rienner, 2002.

185 pages. \$49.95 cloth.

على الرغم من أن الصراع بشأن فلسطين متعدد الأوجه، فإن قضية القدس هي أكثر هذه الوجوه تعقيداً وغرابة، وبطرق لا تؤخذ على الأغلب في الحسبان من قبل أولئك الذين يحملون تصوراً لمستقبل المدينة السياسي. إن واقع كون القدس مدينة مقدسة للأديان الثلاثة يجعلها فضاء رمزياً، لكنه يحجب في الوقت نفسه كونها مكاناً تاريخياً ذا حياة اجتماعية أيضاً. وللقدس بالنسبة إلى المقيمين بها حياة حقيقية ومادية يدور في شأنها نزاع: ثمة مجموعتان وطنيتان تقطنان فيها، وكل منهما تدعي أنها عاصمتها. وقد أدت مكانتها، كمدينة دينية مقدسة، إلى إنشاء عدد من التصورات التاريخية للمدينة، وإلى ترسخها في عقول أتباع هذه الديانات. ومن خلال هذه التصورات المستقلة والمنفصلة، جرى إعطاء مفهوم الـ "مقدس" معاني مختلفة. فهناك إلى حد ما أكثر من قدس تتعايش جنباً إلى جنب وبعضها فوق بعض، حيث لا يرى كل مجتمع إلا قدسه، ويتجاهل في أثناء ذلك رؤية الآخرين، بل حتى وجودهم في المدينة. وبين بيوت هذه القدس أو تلك، وداخل كل منها، يوجد عدة صراعات وتناقضات وتنافسات بشأن مسائل متعددة تتعلق بالروحاني والمادي في الوقت نفسه. إن التنافس فيما يتعلق بمن يمتلك موقعاً تاريخياً ودينياً جزء لا يتجزأ من الحياة في القدس. وفي الوقت نفسه، غالباً ما تصطبغ الصراعات في شأن السياسة الوطنية بعناصر التصورات الدينية. وتوجد اليوم مدينة القدس القديمة في قلب كل هذه التنافسات، على الرغم من أنها لا تشكل سوى جزء صغير من القدس الحديثة اليوم.

يعي مايكل دمبر هذه الصعوبات كلها، ويتفحص في كتابه أدوار المجتمعات الدينية الثلاثة داخل المدينة القديمة، فضلاً عن التغيرات الديموغرافية التي أحدثتها

(* المصدر: *Journal of Palestine Studies*, vol. xxxii, no. 2 (Winter 2003), pp. 104-105.

الاحتلال الإسرائيلي وسياسة الضم. ففي حين ازداد عدد اليهود في المدينة القديمة ازدياداً كبيراً، بموازاة تعاضم السيطرة اليهودية على شؤونها، أخذ الدوران المسلم والمسيحي في شؤون المدينة يتراجعان منذ أن احتلت إسرائيل القدس الشرقية سنة 1967.

يوضح دمير كيف ساهمت أحداث، مثل تدمير حارة المغاربة في المدينة القديمة وتوسيع حارة اليهود، في تراجع الموقع الإسلامي في المدينة. فالسيطرة الإسرائيلية المباشرة على المواقع الدينية التي كانت خاضعة لإشراف المسلمين حتى سنة 1967، واستمرار الحفريات الأثرية تحت الحرم الشريف وحوله، يمثلان محاولات لتغيير طابع المدينة باعتبارها مدينة عربية وإسلامية. ومع ذلك، وجد المجتمع المسلم في المدينة القديمة طرقاً لمقاومة سياسات إسرائيل، ولا سيما من خلال أنشطة سلطات الوقف الإسلامي التي تسعى للحفاظ على طابع المدينة العربي والإسلامي.

وبطريقة مماثلة، يكشف دمير أن مسيحيي القدس رأوا أيضاً أن دورهم في شؤون المدينة أخذ يضعف بشكل كبير. بل إن حجم المجتمع المسيحي تراجع منذ سنة 1948، من نحو خمس إجمالي السكان في المدينة إلى 3٪ فقط. وقد سعت السياسات الإسرائيلية منذ سنة 1967 لمنع التعاون بين المسلمين والمسيحيين، فضلاً عن تعميق الصراعات القائمة فعلاً بين مختلف المذاهب المسيحية. و زاد الأمر سوءاً خضوع أملاك الكنيسة للحيازة اليهودية بطرق شتى، كالمصادرة والاستئجار والشراء.

وبأخذ هذه التغيرات في الحسبان، يخلص دمير إلى أن أعوام الاحتلال الإسرائيلي الطويلة، مع كل التغيرات التي أحدثتها مثل هذه السيطرة، جعلت العودة إلى الوضع الذي كان قائماً قبل سنة 1967 أمراً صعباً. ويرى في الوقت نفسه أن خطط إسرائيل لتوحيد المدينة وتهويدها منيت بالفشل إلى حد كبير. فالمجتمع المسلم في المدينة أخذ يظهر علامات الانتعاش والاعتداد بالنفس، كما أصبحت قيادة الكنيسة أكثر جزمًا بشأن سخطها على التصور الإسرائيلي للقدس.

وفيما يتعلق بمسألة القدس القديمة وعملية السلام، يقدم دمير رؤية ثاقبة للوضع المعقد فيها، تفسر إلى حد ما سبب فشل مفاوضات كامب ديفيد سنة 2000. وعن طريق إخضاع قضية الأماكن المقدسة للفحص القانوني، يشرح المؤلف كيف تمكنت القوانين المتعددة القائمة اليوم من الحفاظ على الوضع الراهن من جهة، وتغييره بحيث لم يعد من الممكن تمييزه من جهة أخرى. ومن القوانين المثيرة للاهتمام بشكل خاص قانون المراسيم القانونية الإسرائيلي. فهذه القوانين لا تتعارض فحسب مع كثير من القوانين السابقة المتعلقة بوضع المدينة (مثل الوضع القائم العثماني لسنة 1856، والفقرة 14 من صك الانتداب لسنة 1922)، بل تخرق أيضاً الالتزامات التي قدمت للفلسطينيين في أثناء عملية السلام. كما أن القوانين الإسرائيلية التي سمحت

للمستعمرين اليهود بالانتقال إلى المدينة القديمة في عدة مناسبات، كانت مسؤولة عن إعادة تعريف الصراع بشأن المدينة وإشعاله أحياناً.

هذا الكتاب غير عادي في موضوعه ومجاله، لكنه ليس غير مألوف. إنه يتحدث عن التصور المقدس، وكيف يشرع ويتفاوض في شأنه وماذا يمثل، فضلاً عن جانب من المفاوضات السياسية في الصراع المتواصل في الشرق الأوسط. لقد تمكن دمير من كتابة رواية شاملة ومتماسكة تجمع بين موضوعات يتم البحث فيها بشكل منفصل عادة. إنها دراسة سياسية وتاريخية جيدة التوثيق يجب أن يقرأها دارسو تاريخ القدس والباحثون والسياسيون من كل الأطراف.

عصام نصار

مدير مشارك،

مؤسسة الدراسات المقدسية، القدس

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>